الطرق الصوفية في الجزائر بين المقتضيات الروحية والأدوار الاجتماعية

أ.عبدالسلام موكيل
جامعة سعيدة

تمهيد

لقد عملت الطرق الصوفية على المحافظة على الهوية الاسلامية بكل أبعادها وتجلياتها ، وكانت رافدا للعلم والمعرفة ، وبالنهج الوسطي الذي دأبت عليه ، استطاعت أن تفرض نفسها وتؤصل للمبادئ والقيم التي هي في الحقيقة رسالة الاسلام الى العالم أجمع ، رسالة تحمل في طياتها وبين ثناياها الدعوة الى التسامح والمحبة والتعاون ونبذ التطرف والتعصب والعدوان . ولا تزال الطرق الصوفية عامل وحدة بين بلدان وشعوب العالم الاسلامي ، ولأن المد الصوفي لا يعترف بالحدود والمسافات ، ويدعوا الى التواصل بين الناس جميعا ونبذ كل أسباب الفرقة والاختلاف .

ومن المعروف أن الاشعاع الصوفي في الجزائر امتد في تأثيره واتساعه وروحانيته أطراف المشرق والمغرب وما ذلك إلا لأن كبار المتصوفة وأقطاب التصوف ، قد أفاضوا بإشراقهم وقدسيتهم على هذه الأرض المباركة أرض الجهاد والرباط ، فلا عجب أن تكون الجزائر مستقرا لهم ولطرقهم ، ثم مركزا نورانيا انطلقت منه جذوة التصوف الى العالم الاسلامي ، فالطرق الصوفية كالتيجانية والمدينية والهبرية والعلوية والسنوسية والشيخية وغيرها كانت ولازالت رافدا مهما لدعاة التصوف في العالم وأنصاره وأتباعه ، وبالتالي فان العرفان الجزائري قد اكتسى طابع الكونية أو العالمية منذ قرون عدة .

الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر لم تكن مجرد حيز مكاني يؤدي الوظيفة التعبدية والروحية ، بل أكثر من ذلك فقد كانت مؤسسات اجتماعية بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، وتعمل على تقديم الخدمات للفرد والجماعة على حد سواء .

ولمعالجة هذا الموضوع يمكن طرح الاشكالية التالية :

الى أي مدى أمكن للزوايا والطرق الصوفية أن تتجاوز الاطار التعبدي والروحاني الى الاطار الاجتماعي في سبيل خدمة المجتمع وترقية منظومة القيم ؟

المحور الأول : التصوف _ الحقيقة والمفهوم –

التصوف من حيث كونه مشكلا لجوهر الدين ، ويمثل التبصر والتأمل الروحاني الخاص بالإنسان قد وجد منذ آدم عليه السلام وصولا الى سيد البشر وإمام المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبتتبع أبجديات التصوف وسياقاته الروحية والتأملية نجدها ماثلة في منهج الأنبياء والمرسلين ، أما من حيث كونه علما قائما بذاته ومنهجا مقررا فلم يتضح بشكل كامل إلا مع القرن الثاني من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم .

وأصل كلمة "تصوف " محل اختلاف بين الدارسين والمتتبعين لحقيقة المصطلح ، فمنهم من ذكر أن أصل الكلمة يعود الى مصطلح "صوفيا" وهي كلمة يونانية وتعني الحكمة ، ومنهم من أشار الى أن التصوف له أصول يهودية أو هندية ، وكلها آراء مجانبة للصواب وبعيدة كل البعد عن الحقيقة التي يشير لها مفهوم التصوف ، وقد بنيت هذه الآراء المحرفة والخاطئة على تشابه الكلمة أو المضمون ، غير أن علماء الاسلام قد أشاروا الى أن مصدر كلمة تصوف اسلامي محض لا علاقة له بما أشار اليه بعض من ينكر التصوف ويعارضه ، وأن أصل الكلمة يعود الى الصفاء وبذلك فهو يدل على تصفية الباطن ، ورأى آخرون الى أن الأصل يرجع الى " أهل الصفة " وهم العباد والزهاد الفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانوا يلبسون الصوف ويجلسون في "الصفة " وهي المكان المظلل الذي كان في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يأوي اليه الفقراء من المهاجرين وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعهدهم ويرعاهم . (1)

أهل الصفة كما ذكر أهل السير كانوا مميزين في زهدهم وطلبهم للعلم واتصافهم بالتقوى ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوا أغنياء الصحابة رضي الله عنهم بالتصدق والإحسان والبر الى أهل الصفة واللافت في هذه القضية أن الخلافات التي ظهرت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدى فيها أهل الصفة حيادا ظاهرا وبينا ، فلم ينحازوا الى فريق أو طائفة معينة على حساب فريق آخر ، وإنما رأوا في اختلاف المسلمين وتنافرهم خطرا يتهدد الأمة ويعصف بوحدتها ويهدم أركانها ويقوض بنيانها ومن هنا أخذ التصوف معناه من هذا المصطلح " أهل الصفة " .

كما أشار البعض إلى أن التسمية أو مصطلح التصوف أخذ من لبس الصوف ، لأن جل لباس الأنبياء والعباد والزهاد هو الصوف حسب رأي ابن عجيبة ، وهذا الاشتقاق كما أشاروا أليق لغة وأظهر نسبة فيقال تصوف اذا لبس الصوف كما يقال تقمص اذا لبس القميص . (2)

والتصوف علم يعرف به كيفية السلوك الى حضرة ملك الملوك ، وتخلية الباطن من الرذائل وتحليته بكمال الفضائل ، أو غيبة الخلق في شهود الحق ، ومن بين الذين تكلموا في المعنى الدقيق للتصوف أبو نصر السراج الطوسي صاحب كتاب اللمع والمتوفي سنة 378 هـ فيقول عن حقية التصوف " اذا سأل سائل فقال : قد نسبت أصحاب الحديث الى الحديث ، ونسبت الفقهاء الى الفقه ، فلم قلت الصوفية ولم تنسبهم الى حال ، ولا الى علم ، ولم تضف اليهم حالا كما أضفت الزهد الى الزهاد ، والتوكل الى المتوكلين والصبر الى الصابرين ، فيقال لهم لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم .....، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم ، ومحل جميع الأحوال المحمودة ، والأخلاق الشريفة سالفا ومستأنفا ، وهم مع الله في الانتقال من حال الى حال ، مستجلبين للزيادة ، فلما كانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسما دون اسم ، فلأجل ذلك ما أضفت اليهم حالا دون حال ، ولا أضفتهم الى علم دون علم ...." ، ويذهب العلامة ابن خلدون الى أن التصوف بوصفه علما من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف هذه الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين من بعدهم ، طريق الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال أو جاه ....." (3) .

كما أن هناك جملة من التعريفات المهمة قدمها العلامة القشيري في رسالته :

_ التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني .

_ التصوف أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى به في الوقت .

_ التصوف أخلاق كريمة ظهرت في زمن كريم من رجل كريم مع قوم كرام .

_ التصوف ألا تملك شيئا ولا يملكك شيء .

_ التصوف

استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده .

_ التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق .

_ التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء .

_ التصوف الجلوس مع الله بلا هم .

_ التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب .

_ التصوف أن يختصك الله بالصفاء ، وأن تكون مع الله بلا علاقة (4) .

أما الشيخ عبدالحليم محمود فيرى أن التصوف صفاء ومشاهدة ، أما الصفاء فالاشارة الى قوله تعالى " قد أفلح من زكاها " ، وأما المشاهدة فالاشارة الى قوله تعالى " شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط " ، وعرفه أبو سهل الصعلوكي بأنه الاعراض عن الاعتراض ، أي الابتعاد عن اعتراض أوامر الله تعالى ، أما السيوطي فيرى أن التصوف هو تجريد القلب لله تعالى واحتقاره ما سواه ، أما العلامة زروق فيقول عنه بأنه صدق التوجه الى الله بما يرضاه من حيث يرضاه .

وبملاحظة كل التعريفات السابقة قديمها وحديثها، فان ابن القيم الجوزية يخلص في كتابه الشهير مدارج السالكين بعدما أورد جملة من التعاريف السابقة " واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم أن التصوف هو الخلق، وجميع الكلام فيه يدور على قطب واحد،هو بذل المعروف وكف الأذى ، ومن الناس من يجعلها ثلاثة:كف الأذى واحتمال الأذى وإيجاد الراحة "(5).

ونشير الى أن التصوف يستمد تأصيله من الكتاب والسنة وهما عماده وركيزته ، ومن هذين الأصلين انطلق المتصوفة الأوائل في المجاهدة والسلوك ، كما نجد أن مؤلفاتهم وما خلفوه من تراث صوفي قد لقي انتشارا وإقبالا كبيرا ، مثله في ذلك مثل بقية العلوم الأخرى التي حظيت بالاهتمام والرعاية ، وحدث له ما حدث للمذاهب الفقهية الشهيرة والتي وجدت من يؤيدها ويقبل عليها وينتسب لها(6) .

المحور الثاني : الطرق الصوفية وسياقها التاريخي

بدأت معالم علم التصوف تظهر مع بداية النصف الثاني من القرن الهجري ، وكان أول من تسمى بهذا الاسم هو أبو هشام الصوفي المتوفي سنة 150 هـ ، وبقيام التصوف على الزهد فقد عد الامام الحسن البصري (هـ110) من أهم رواد المتصوفة باعتبار نهجه في الزهد ومؤلفاته التي تضمنت كل ما يشير الى ذلك ، ومع بداية هذه الفترة _ القرن الثاني الهجري _ ظهر كبار الزهاد ومن أشهرهم محمد بن سيرين ، وأبو حازم ، وعبدالله بن المبارك ، والفضيل بن عياض ، ومعروف الكرخي ، وبشر بن الحارث الحافي ، والحارث بن أسد المحاسبي ، وأبو يزيد البسطامي ، وأبو بكر الوراق ، وأبو القاسم الجنيد وغيرهم ومع بداية القرن الثالث الهجري والقرن الرابع تداخلت العلوم العربية والاسلامية مع بقية الثقافات وعلوم الحضارات الأخرى كالفلسفة اليونانية ، وظهر بشكل لافت تيار الترجمة حيث نقل الى العربية كثير من المعارف والفنون والعلوم التجريبية وغيرها من روافد العلوم الأخرى ، وهو ما أثر على علم التصوف في حد ذاته ، فظهرت كثير من التيارات والمدارس المتعددة ، وهنا يشير بعض الباحثين والدارسين لمسار علم التصوف أنه مر بمرحلتين ، مرحلة ما قبل التدوين وفيها اعتنى رجال التصوف بالجانب العملي والتطبيقي ، وتلقوا مبادئ علم التصوف وقواعده من صدور الرجال وسيرهم ونهجهم ، والمرحلة الثانية هي مرحلة التدوين وهي المرحلة التي اشتغل فيها بعض المتصوفة بوضع معالم هذا العلم ، وتأسيس مصطلحاته كالفناء والبقاء والمقام والحال والبسط ..... (7) .

كما أن بعضا ممن درس علم التصوف وتتبع مساره التاريخي ، يشير الى أنه يتضمن تيارات ومذاهب ومدارس مختلفة ، فيتحدثون عن تصوف فلسفي وتصوف سني وتصوف روحي وآخر اشراقي ، والى مدارس متعددة كمدرسة الكوفة ومدرسة بغداد والشام ، غير أن هذه المدارس والتيارات ليس لها سند تاريخي يثبت هذا الادعاء ، غير أن المؤكد في هذا السياق أن التصوف الاسلامي مر بمراحل مختلفة وهو ما دفع البعض الى النظر اليه بذلك الاعتبار ، ومن خلال هذا التطور التاريخي فان التصوف في بدايته نشأ اسلاميا صرفا ، غير أنه مع التطور الحاصل في تعدد المعارف والعلوم وفي ظل الثقافات الدخيلة على الحضارة الاسلامية ، تأثر الى حد معين وامتزج ببعض العناصر الغير أصلية والمتنوعة (8) .

وبذلك فان التصوف الاسلامي مر بخمس مراحل رئيسة :

المرحلةالأولى : مرحلة الزهد ، وقد ذكرنا أن هذه المرحلة كانت خلال القرنين الأول والثاني الهجري ، وقد ذكرنا جملة من أشهر روادها كالحسن البصري وغيره من الأعلام الآخرين .

المرحلة الثانية : مرحلة التصوف الصرف أو الخالص ، خلال القرنين الثالث والرابع الهجري ، وبذلك انتقل التصوف من مجرد الاطار التعبدي الى الاطار المعرفي ، حيث ظهرت معالم التصوف وأبجدياته، ومن أهم رجال التصوف في هذه المرحلة البسطامي والحلاج وغيرهم .

المرحلة الثالثة : مرحلة التصوف السني ، خلال القرن الخامس الهجري ، وقد مثله جملة من الأعلام أشهرهم الغزالي والقشيري ، وقد كان للغزالي دور بارز في اعادة رسم وتشكيل التصوف ، وفق هذا التصور أي التمسك بالسنة وملازمة التصوف لها والسير وفق منوالها .

المرحلة الرابعة : التصوف الفلسفي ، خلال القرنين السادس والسابع الهجري ، ومثل هذا الاتجاه اثنان من أقطاب ودعامات هذا العلم هما شهاب الدين السهروردي ، ومحي الدين بن عربي ، وهناك من يعتبر هذا التوجه تيارا تجديديا اشراقيا .

المرحلة الخامسة : مرحلة الطرق الصوفية ، باعتبارها خلاصة المراحل السابقة ، حيث صار هناك جملة من الطرق الصوفية ، فكل طريقة لها شيخها ومريدوها ، ولها معالم وأسس وقواعد تختلف عن غيرها ، وتختلف باختلاف شيوخها (9) .

وهناك أيضا اتجاه آخر يقسم المسار التاريخي للتصوف الى ثلاث مراحل كبرى مر بها :

المرحلة الأولى : مرحلة البحث عن الذات وتغطي القرون الثلاثة الأولى ، وهي فترة الصراع من أجل البقاء ، وهي مرحلة التأسيس لعلم التصوف .

المرحلة الثانية : وهي مرحلة التوفيق بين التصوف والمعارضين له ، وهي مرحلة انتهت لصالح التصوف وذلك على يد أبي حامد الغزالي والذي يعود له الفضل في ترسيخ مبادئه وتقوية بنيانه .

المرحلة الثالثة : وهي المرحلة التي تميزت بانتشار مؤلفات التصوف الكبرى ، وظهر بعد ذلك اتجاهان في علم التصوف اتجاه فلسفي مثله كل من محي الدين بن عربي والسهروردي ، واتجاه شعبي تمثل في الطرق الصوفية ، وبفضل هذه الطرق انتشر التصوف في أرجاء العالم الاسلامي ، وكان من بين الرواد الذين أسسوا هذه الطرق رجل من الفقهاء حنبلي المذهب هو الشيخ عبدالقادر الجيلاني والذي أمضى اثنين وثلاثين عاما درس فيها مختلف علوم الشريعة ثم جلس للعلم والوعظ (10) .

كما يرصد البعض الحركة التاريخية للتصوف وصولا الى الطرق الصوفية وذلك عبر الأطوار التالية :

الطور الأول : طور التسامي عن الحياة المادية ، وهو عصر الصحابة وكبار التابعين خلال القرن الأول والثاني ، وهذا العصر هو عصر الزهد ، فإذا رجعنا الى كتاب حياة الصحابة للكندهلوي وتأملنا في زهد هؤلاء لوجدنا ترفع ذلك الجيل الأول عن الدنيا وإقبالهم على الآخرة ما يفوق الوصف .

الطور الثاني :طور التشبه بالسابقين ، ويبدأ هذا العصر من منتصف القرن الثاني الهجري وكذا القرن الثالث ، وامتاز هذا العصر بالحرص على اتباع السابقين في نهجهم وسلوكهم وزهدهم ، وكان على رأس أعلام ورواد هذا الطور ابراهيم بن أدهم المتوفي سنة 161 هـ ، وأبو سليمان داوود بن نصر الطائي المتوفي سنة 165 هـ وقد اشتهر بالعلم والفقه والحلوة والعبادة ، ومن أشهر من ظهر في هذه المرحلة رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية أم الخير المشهورة بالزهد والصلاح ، والداعية الى حب الله لذاته وقد توفيت سنة 185 هـ ، والفضيل بن عياض المتوفي في مكة سنة 187 هـ ، وشقيق البلخي المتوفي سنة 194 من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم .

الطور الثالث : طور دخول المصطلحات الصوفية ، وامتد من منتصف القرن الثالث الهجري وحتى القرن الرابع ، وقد ظهر خلال هذا العصر أبو يزيد البسطامي المتوفي سنة 261هـ ، وهو أول من تكلم في الفناء وتكلم بالمكاشفة ، كما ظهر أيضا أبو محمد سهل التستسري المتوفي سنة 283 هـ ، وقد كان زاهدا معروفا ، وكان ممن يذكر الله بقلبه .

الطور الرابع : طور تبلور الطرق الصوفية ، وكان ذلك خلال القرن الخامس من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أبرز رواد هذا العصر كما ذكرنا آنفا الشيخ عبدالقادر الجيلاني " الجيلي " ، ويرفع الشعراني نسبه الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد ولد الشيخ الجيلاني سنة 471هـ ، وقدم بغداد وهي دار التصوف وحاضنته ، وتوفي سنة 561هـ ، واليه تنسب الطريقة القادرية ، وقد نسب اليه كثير من الكرامات الشهيرة ، ومن أعلام هذا الطور أحمد بن أبي الحسين الرفاعي من بني رفاعة واليه تنسب الطائفة الرفاعية ، نسبة الى مولد أحمد الرفاعي بالبطائح ، كما ظهرت بعد ذلك الطريقة الشاذلية ومؤسسها أبو الحسن علي بن عبدالله بن عبد الجبار الشاذلي ، نسبة الى شاذلة في تونس والمتوفي سنة 656 هـ ، وتنسب اليه الطريقة الشاذلية والتي انتشرت في كل من الجزائر والمغرب ومصر واليمن ، كما ظهر أيضا أحمد البدوي الذي ولد بفارس سنة 596هـ ، ورحل الى العراق واستقر بمصر بطنطا حتى وفاته سنة 634 هـ ، وهو من أكبر أولياء مصر ، وتميز بالفروسية ولزم الخلوة وامتنع عن الزواج ، واليه تنسب الطريقة الأحمدية ، حيث انتشرت هذه الطريقة في جميع أنحاء مصر ولها فروع متعددة ، ويمتاز أتباعها بشاراتهم وهي العمامة الحمراء ، كما ظهر في هذه الحقبة ابراهيم الدسوقي (623_ 667هـ)،واليه تنسب الطريقة الدسوقية ،وتقوم هذه الطريقة على محبة الناس ، والتخلي عن حظوظ النفس والهوى ، والتسليم المطلق من المريد للشيخ ، وعدم استحباب الخلوة من المريد إلا في حضرة الشيخ (11) .

المحور الثالث : ظاهرة التصوف ونشأة الطرق الصوفية في الجزائر

ظهرت شخصيات صوفية كبيرة في المغرب الاسلامي بوجه عام ، وفي الجزائر بشكل خاص ، وقد أسهمت هذه الشخصيات في عملية التأسيس والتأريخ بالنسبة لتاريخ التصوف وتراثه الممتد، على أن المتصوفة في المغرب الاسلامي كان عددهم أكثر من أن يحصى ، بسبب امتداد الطرق الصوفية وكثرة أتباعها ، ومع بدايات القرن العاشر أخذ التصوف مكانة رائدة في الجزائر ، وبدأ يأخذ توجها عمليا بعد أن كان يقتصر على الجوانب النظرية فقط ، وكان هذا بالتزامن مع ظهور ما يعرف بالزوايا ، ومصطلح الزاوية ترد تحت مادة " انزوى " والتي تعني انعزل واعتزل الناس ، وركن الى زاوية من الزوايا وتفرد بنفسه ، والزاوية بهذا الاعتبار تعتبر محطة للعابر والمقيم فالأول يتخذها مسكنا مؤقتا أو مبيتا ثم يتابع مسيرته ، والثاني لطلب العلم والذكر .

بدأ التصوف يمتد بشكل لافت في الجزائر في بلاد القبائل وفي بجاية على وجه التحديد ، والتي كانت تعتبر بحق من بين حواضر الاشعاع العلمي والمعرفي ، كما كانت مهد الطرق الصوفية وامتدادها لقرون عدة ، فقد انطلق منها أعلام كبار في التصوف من أمثال أبو زكريا الزواوي ، وأبو زكريا السطيفي، والشيخ أبي مدين الذي انتقل منها الى تلمسان وتوفي بالعباد سنة 595هـ، ومنها انتقل الاشعاع الصوفي الى بقية الجهات الأخرى ، وقد كان أبو مدين شعيب من أبرز رجالات التصوف وقد عرفت طريقته بالمدينية وانتشرت في كامل المغرب الاسلامي،وازداد انتشارها على يد تلميذه الشهير عبدالسلام بن مشيش المتوفي سنة 665هـ ، ثم تطورت الطرق الصوفية بعد ذلك خصوصا مع مجيء أبي الحسن الشاذلي تلميذ ابن مشيش وشيخ الطائفة الشاذلية ، والطريقة الشاذلية كان لها الأثر البالغ لمسار التصوف في الجزائر وأيضا رافدا مهما لظهور طرق صوفية عدة بالجزائر ، كما أن المدرسة الثعالبية ممثلة في الشيخ عبدالرحمن الثعالبي كان لها اسهامها المعتبر في ظهور وامتداد الطرق

الصوفية بالجزائر ويمكن الاشارة الى جملة من العوامل كان لها الدور الرئيس في انتشار التصوف بالجزائر وامتداده ومن بين هذه العوامل والأسباب ما يلي : (12)

عوامل فكرية : وذلك من خلال ظهور أعلام وأقطاب التصوف بالجزائر ، والذين كان لهم باع طويل في العلم والزهد والصلاح ، وأثروا بسلوكهم ومؤلفاتهم في نهج وسير أتباعهم ، ومن أبرزهم أحمد بن يوسف الراشدي بعين مليانة المتوفي سنة 937هـ ، وعبدالرحمن الثعالبي ، ومحمد التواتي البجائي ، والشيخ أبي مدين شعيب ، وشعيب السنوسي .

عوامل سياسية : ومن أبرز هذه العوامل سقوط الأندلس وهجرة الكثير من علماء ومتصوفة الأندلس الى المغرب الاسلامي وانتشار وتوسع هذه الأفكار وتأثر المغاربة بها ، بالإضافة سقوط الدولة الموحدية والتي كانت حصنا منيعا أمام الغزو الصليبي خصوصا الهجمات الاسبانية .

عوامل اجتماعية : انتشار الترف والبذخ وتراجع القيم والمقومات الدينية والأخلاقية ، وقد حارب الصوفية مظاهر الانحراف التي سادت المجتمع آنذاك .

ويشير البعض الى أن الزوايا حلت تدريجيا محل الرباط ، ثم تطورت على يد المرابطين وشيوخ الطرق الصوفية لتجمع بين العبادة والعلم والاصلاح والجهاد والتربية في نفس الوقت ، وهنا لابد من التفريق بين زوايا المشرق وزوايا المغرب ، فالزاوية التي هي مكان للعبادة وإيواء المحتاج وعابر السبيل تسمى في المشرق خانقاه أو خانقاوات أو خوانق ، والزاوية في المغرب كانت تلقب بدار الكرامة ومنها الزاوية التي أسسها المرابطون في فاس .

ومما تجدر الاشارة اليه أن مشايخ الطرق الصوفية بالجزائر وعبر المسار التاريخي للتراث الصوفي كان لهم تأثير وسلطة روحية على الفئات الشعبية عموما ، فمثلا مشيخة الثعالبة كان لهم امتداد روحي وسلطة معتبرة استطاعت جمع شتات كثير من القبائل المتنافرة ، فالثعالبي في أثناء حياته وحتى بعد وفاته مثل رمزا روحانيا له تأثيره وسطوته على مدينة الجزائر وأحواض متيجة ، ومثل القطب الصوفي محمد الهواري ذات التأثير والسلطة على مدينة وهران وما جاورها ، ومدينة تلمسان ورغم وجود سلطة زمنية بها آنذاك إلا أنها كانت تلقب بمدينة سيدي بومدين الغوث ، وكانت الطريقة القادرية هي الأخرى تمثل ذلك الامتداد الروحي ، بل انها استطاعت عبر هذا التأثير أن تجند الجزائريين وتدفعهم للجهاد تحت لواء الأمير عبدالقادر الجزائري الذي نهل من الطريقة القادرية وتأثر بها .

وعلى مر القرون توطد التصوف في الجزائر ، وأنجب عددا هائلا من أقطاب التصوف والذين ساهموا في نشر تعاليمه ومبادئه في كافة العالم الاسلامي ، بل ومن الطرق الصوفية الجزائرية والتي صار لها امتداد عالمي ، كالتيجانية ومؤسسها أحمد الشريف التيجاني ، والطريقة الرحمانية ومؤسسها العارف بالله محمد بن عبدالرحمن الشريف الحسني القشطولي الجرجري الأزهري ، والطريقة السنوسية ومؤسسها العارف بالله محمد بن علي الخطابي المستغانمي ، والطريقة الهبرية ومؤسسها العارف بالله الحاج محمد الهبري العزاوي ، والطريقة العلوية وهي خلاصة الطريقة الشاذلية الدرقاوية ومؤسسها العارف بالله أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي ، كما برزت أسماء نساء جزائريات عارفات بالله تقلدن منصب المشيخة الصوفية ، مثل لالة زينب بنت سيدي محمد بن بلقاسم الحسنية الفاطمية الهاملية والتي أدارت احدى الزوايا الرحمانية ، كما لا يمكن تجاهل أسماء عالمية تركت بصماتها على التراث الروحي للبشرية ونحن نقصد باني الدولة الجزائرية الحديثة الأمير عبدالقادر بن محي الدين والذي يعود اليه شرف ارث الطريقة القادرية ويعتبر أعظم شارح لتعاليم ابن عربي ، ولا ينسى له التاريخ موقفه الخالد في انقاذ حياة آلاف النصارى في الشام وفاء لقيمه الصوفية ، وبوجود القطب الكبير أبي مدين شعيب في الجزائر ، جعل منها الدائرة المركزية

لامتداد السلطة الروحية والإشعاع الصوفي في العالم الاسلامي ، فقد تخرج من هذه المدرسة اثنان من أعلام التصوف العالمي العارفان بالله عبدالسلام بن مشيش وأبي الحسن الشاذلي . (13)

المحور الرابع : الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر ودورها الاجتماعي

تعتبر الزاوية في البناء الصوفي الديني مدرسة ومقر استرشاد وتربية وهذه وظيفتها الأصلية ، بالإضافة الى كونها ملجأ أمان ومحلا لإطعام الطعام لكل قاصد وعابر سبيل ومسكين ، غير أن هذه الوظائف بقدر ما كانت تعبر عن أدوار محددة ، بقدر ما كانت تحمل في طياتها أسرار تفاعل الزاوية والطرق الصوفية عموما تفاعلها مع المجتمع والسلطة على حد سواء ، وبالإشارة الى هذه الوظائف فان الزاوية لم تكتسب قيمتها الفعلية في المجتمع إلا بعد أن طورت وعملت على تقوية نفوذها وسلطتها المعنوية والرمزية ، ووسعت من أدوارها داخل المجتمع وهو ما مكنها من بسط مسؤولياتها الدينية والدنيوية ، ومن خلال هذه الوظائف والأدوار الاجتماعية والتي صارت الزاوية تضطلع بها ، أمكن لها أن تكون مؤسسة اجتماعية فضلا عن أدوارها العلمية والتربوية والروحية ، ومن بين أهم الأعمال التي يمكن الاشارة اليها والتي هي في الحقيقة العنوان الرئيس الذي يمثل شعار الزاوية وتركيبتها وسر نفوذها وقوتها هي التربية والتعليم والأعمال الخيرية والبناء الأخلاقي والقيمي للمجتمع والتوجيه الروحي والإصلاح .

من الواضح أن الحركة التعليمية في الجزائر كانت مقتصرة فقط على الحواضر المعروفة وهي تلمسان وبجاية وقسنطينة ، لكن مع ظهور الزوايا وانتشارها في الأرياف مكن من نشر التعليم خصوصا التعليم القرآني بالإضافة الى العلوم الشرعية الأخرى ، وصار بإمكان الناس تلقي هذه المعارف والعلوم في أماكن شتى ، كما أن شيوخ الزوايا في حد ذاتهم ، اضطلعوا بدور التدريس والتعليم فضلا عن الدور التربوي والروحي ، وقد اهتمت الزوايا والطرق الصوفية بتعليم القرآن ومبادئه وجعل ذلك متاحا لكل الفئات صغارا وكبارا ، بصورة مركزة ومستمرة وهو ما مكن من محاربة ظاهرة الأمية ، والتي سادت المجتمع الجزائري بسبب الاستعمار الفرنسي والذي حارب كل مظاهر التعليم وحاصر مقومات الهوية الوطنية وعمل جاهدا من أجل القضاء عليها،كما عملت الزوايا على تنوير طلبة العلم بالعلوم المتعددة الأخرى وفي الجانب الأخلاقي والتربوي كان لها الأثر الكبير في صقل الشخصية الاسلامية من خلال المبدأ الصوفي التخلية والتحلية ، أي محاربة الرذائل والمفاسد والقضاء عليها ، وإشاعة الفضيلة بين الناس والدعوة اليها والتحلي بمكارم الأخلاق ، كما كان لها الدور الأهم في نشر التعاليم الدينية في الأماكن البعيدة ، والتي لم تكن وصلت اليها تلك المبادئ والتعاليم الاسلامية كالمناطق وا لأقاليم الصحراوية النائية ، من جانب آخر كانت الزوايا تحوي بين أكنافها مكتبات نفيسة تتضمن كتبا ومراجع أصيلة ومخطوطات نادرة ، وهو ما مثل رافدا معرفيا مهما بالنسبة للدارسين والباحثين في هذا المجال ، وهذه الكنوز المعرفية هي جزء مهم من الارث الحضاري الاسلامي والذي حافظت عليه الزوايا طيلة قرون عديدة ، وقد كان للمرأة حظها أيضا في التعليم والتربية ، واهتمت الزوايا بهذا الجانب فحررت المرأة من قيود الأعراف والتقاليد والتي كانت تستعبدها في أحيان كثيرة وتمنعها من مزاولة التعليم والتربية وتقف حاجزا أمام انطلاقها واثبات وجودها ، وبذلك نجد أن الزاوية كانت بمثابة الحاضنة للمجتمع فمن خلالها تلتئم الجماعة ويقرر مصير كثير من المسائل والقضايا المجتمعية الملحة ، بالاضافة الى دورها في الاصلاح بين الناس والقضاء على الخصومات ، وملاذا آمنا لكل قاصد أو عابر سبيل أو صاحب حاجة كما لا يمكن اغفال دورها الجهادي في محاربة الاستعمار ، فالقادة الذي حملوا جذوة الجهاد والمقاومة تتلمذوا ودرسوا في هذه الزوايا ، والأمثلة كثيرة فالطريقة الشيخية على سبيل المثال والتي أسسها العارف بالله عبدالقادر بن محمد كانت رمزا للمقاومة الشعبية، وثورة أولاد سيد الشيخ بقيادة الشيخ بوعمامة أبلغ

دليل ومثال ، وكل الطرق الصوفية الأخرى في الجزائر كالهبرية والرحمانية وغيرها مثلت رافدا مهما بالنسبة للثورة الجزائرية وقاعدة خلفية متينة في مجابهة الاستعمار الفرنسي (14) .

ويمكن القول أن الزوايا والطرق الصوفية لها أدوار تعبدية وجهادية وايوائية ، وقد عرفت هذه الأدوار انتعاشا وتطورا ملحوظا ، كما أن هناك سمة رئيسية صارت محددا للجانب التعبدي في الزاوية وهو الطبيعة الصوفية والمتمثلة في الاطار الروحي الذي ينظم العلاقة بين الشيخ والمريد من خلال منظومة الأذكار والأوراد الخاصة بكل طريقة،والأمر لا يتوقف عند مجرد الذكر بل ان المريد في علاقته بشيخه يتبعه وجدانيا وروحيا وحتى في الجانب الاجتماعي ، فطقوس الزواج وما يتعلق بها من ترتيبات تتم وفق الاطار العام للزاوية ، فالشيخ هو من يشرف على مراسم الزواج بالنسبة لمريديه ومحبيه ويمنحهم البركة والتأييد ، فيضفي جانب القداسة على ذلك الرابط الاجتماعي .

وعلى الاجمال فان الزواية بمثابة مؤسسة تأطيرية للمجتمع والفرد ، تدرس العلوم اللغوية والشرعية والعرفانية ، وتؤوي العابر وابن السبيل ، وتطعم الفقراء ، وتكفل المحتاجين ، وتصلح ذات البين بين الأفراد والجماعات ، وتعبئ للجهاد والدفاع عن الثغور ، وتلقن مكارم الأخلاق ، وتؤسس وترسخ قيم التضامن والإيثار والتكافل الاجتماعي (15) .

من أدوار ووظائف الزوايا والطرق الصوفية زرع مبادئ التسامح ، ومحاربة مظاهر التطرف والتعصب والغلو والعنف ، والدعوة الى الوسطية ، وهي من خلال هذا المنهج مثلت على الدوام الاسلام المعتدل الذي يرفض كل أشكال الاساءة الى كرامة الانسان وحرية الأديان، من منطلق قوله تعالى " لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي " وقوله تعالى " وكذلك جعلناكم أمة وسطا " ، وهذه الوسطية تدعوا الى احترام خصوصية المجتمعات ونبذ التطرف والإكراه ، واحترام الآخر وان كان يخالف في المعتقد . وعلى العموم فان الزوايا والتي كانت تسمى قديما " دار الضيوف " والتي حملت طابع وصبغة الجود والكرم والاحسان، لم يتوقف دورها عن كونها محلا لإطعام الناس ، بل أكثر من ذلك فقد استطاعت أن تنظم شؤون الناس في اطار جماعي منظم ومنسق ، بعدما كان الأفراد عرضة لتعسف الأقوياء وجور الأغنياء ، وسعت الى مسألة الضبط الأخلاقي من خلال مبادئ وأساسيات مهمة منها احترام الكبير ، واكرام الغريب وحب المساواة وتقدير العلماء وحملة القرآن وقبول النصح ، والتزام الأدب حتى في طريقة الجلوس والأكل والشرب والتحية ، فهي تعاليم مهمة من أجل اصلاح الفرد وتربية المجتمع وتقويم السلوك ومحاربة مظاهر الانحراف والفساد (16) .

خاتمة

لقد كانت الزوايا والطرق الصوفية منبعا للإشعاع الروحي والتربوي ، واستطاعت من خلال نهجها وسلوكها المعتدل والقائم على مبدأ الوسطية والاعتدال ، أن تقدم نموذجا راقيا في تثبيت دعائم العقيدة الاسلامية الصحيحة، وتأسيس منظومة القيم والأخلاق السامية والدعوة الى الفضيلة ، والتمسك بمقومات الهوية العربية والاسلامية ، والحفاظ على أصالة الأمة . كما كان للتصوف في الجزائر المنزلة والمكانة السامقة في خارطة التصوف العالمي ، بحكم وجود أقطاب التصوف وأعلامه الكبار بهذا البلد،يضاف الى ذلك التنوع والتميز في تعدد الطرق والزوايا الصوفية وانطلاقها نحو العالمية . ان الطرق والزوايا الصوفية بالجزائر لم تكن مجرد منارات للتعبد ، وملازمة الطقوس والتراتيب والنسك الروحانية والعرفانية ، بل كانت مؤسسات اجتماعية رائدة ،قلما نجد لها نظير في مجال تقديم الخدمات ورعاية الفرد والحفاظ على كينونة الجماعة ، والحفاظ على ثقافة ا لأمة ورسم معالم خصوصيتها من خلال سلم قيمي وأخلاقي قويم يحترم وجود الانسان وكرامته،ويراعي حاجة الفرد والجماعة ، ويستجيب لكل الهموم الطارئة ويعالج كل الانحرافات ويقدم العلاج المناسب . ان المتتبع لمسار الزوايا والطرق الصوفية يلحظ بشكل واضح جلي ، الدور البارز والتأثير المباشر والفعال على البنية الاجتماعية الجزائرية ، وذلك

من خلال الوظائف المتنوعة التي صارت تضطلع بها ، مثل ايواء الفقراء والعجزة وعابري السبيل ، والتكفل بالطلبة ماديا ومعنويا،وإصلاح ذات البين ، والاشراف على قضايا المجتمع وطقوسه المتعددة كالزواج ، وفض النزاعات وغير ذلك من الاسهامات البارزة التي صارت ترعاها وتمثلها ، ولا يمكن أن ينكر هذا الدور إلا جاحد ومعرض .

وما يمكن الاشارة اليه في الأخير أن الزوايا الصوفية كانت بحق وعبر مسار تاريخي طويل مؤسسة اجتماعية أصيلة تربوية ودينية وحتى عسكرية في بعض الأوقات ، حتى قيل عنها أنها أصغر من دولة وأكبر من حزب .

الهوامش

1- عثمان نوري طوباش ، التصوف من الايمان الى الاحسان ، ترجمة : محمد حرب ومحمد عزالدين سيف ، اسطنبول : دار الأرقم ، 2015 ، ص 33 .

2- ناجم مولاي ، مفهوم الانسان الكامل في الفكر الصوفي ، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية ، العدد السابع ، جانفي 2012 ، ص 138 .

3- عبدالرحمن بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج1، ط1 ، بيروت : دار الكتب العلمية ، 1992 ، ص 514 .

4-أبي القاسم عبدالكريم القشيري ، الرسالة القشيرية ،

5- ابن القيم الجوزية ، مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين ، ط 1 ، بيروت : دار الكتاب العربي ، 2004، ص 590 .

6- عثمان نوري طوباش ، مرجع سابق ، ص 34 .

7- العيد علاوي ، التصوف من اشكالية الفهم الى تيه الممارسة ، مجلة المخبر – أبحاث في اللغة والأدب الجزائري – جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الجزائر ، العدد الثامن 2012، ، ص 135.

8- عبد الغني قاسم عبدالحكيم ، المذاهب الصوفية ومدارسها ، ط 2 ، القاهرة : مكتبة مدبولي ، 1999 ، ص 27_38 .

9- محمد تركي ابراهيم ، فلسفة الموت عند الصوفية ، ط 1 ، الاسكندرية : دار الوفاء للطباعة والنشر ، 2003 ، ص 19_21 .

10- سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني ، الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية ، ط1 ، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، 1997 ، ص 32 .

11- محمد يوسف الشوبكي ، مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي ، مجلة الجامعة الاسلامية ، المجلد العاشر ، العدد الثاني ، 2002، ص 20

12- طيب جاب الله ، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري ، مجلة معارف ، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية ، العدد 14، السنة الثامنة (أكتوبر 2013) .

13- زعيم خنشلاوي ، الجزائر دار الهجرة ومستقر الايمان ، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الانسان والتاريخ ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، ص 18 .

14- عبدالعالي بوعلام ، الدور الثقافي والديني للطرق الصوفية والزوايا في الجزائر ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، العدد 15 ، 2011 .

15- محمد التهامي الحراق ، من أجل تجديد عمل الزوايا : رؤية استشرافية ، المجلة الالكترونية هسبريس ، 2014 ، متوفر على الرابط : http://www.hespress.com/opinions/112481.html

16- علي مراد ، الحركة الاصلاحية الاسلامية في الجزائر ، ترجمة محمد يحيان ، ج4، ط 2 ، الجزائر : دار الحكمة ، 1999 ، ص 79 .